صفحات من الأدب الجزائري الحديث

رجوع الى تبازة

بقلم البير كامو

« لقد أبحرت بروح غاضبة بعيدا عن مسكن الآباء ، مجتازاً أضعافاً من صخور البحر ، وسكنت أرضاً أجنبية عنك . »

ميدى

منذ خمسة ايام والمطر ينهمر بلا مهادنة على مدينة الجزائر حتى انتهى بتبليل البحر نفسه . ومن سماء تبدو انها لا تنضب ، راحت وابلات غير منتهية ، لزجة من فرط الكثافة ، تنصب فوق الخليج . وكان البحر أشهب ورخواً كأسفنجة كبيرة ، ينتفخ في الخليج الصغير غير المستدير . لكن صفحة البحر تبدو وكأنها ساكنة تحت المطر الثابت . ومن بعيد لبعيد ، راحت حركة واسعة غير مدركة ترتفع — فوق البحر — ببخار مضطرب انساب محاذياً للشاطيء ، تحت حزام من ازقة مبللة . حتى المدينة بكل جدرانها البيضاء التي تتجدول ندى ، ارتقت ببخار آخر خفيف راح يعانق الاول . وحيثما اتجهت يخيل اليك انك تستنشق الماء وتشرب الهواء .

وأمام البحر الغارق ، كنت اسير أتأمل في هذه الجزائر التي بقيت عندي مدينة المواسم الصيفية . لقد هربت من ليل اوربا ، ومن شتاء الوجوه . لكن مدينة الصيف نفسها قد اقفرت من هذه الضحكات ، ولم تعد تقدم لى سوى ظهور محدودبة ولامعة . وعند المساء ، في المقاهي المضاءة بقوة حيث كنت الجأ ، قرأت سني على وجوه تعرفت اليها دون ان استطيع تسميتها . وما استشففت منها سوى شيء واحد هو ان هؤلاء كانوا معي شباناً ، ولم يعودوا الآن .

ومع هذا فلقد وقفت بعناد دون ان أعرف ماذا اترقب ، لعله — فيما اظن — رغبتي في الرجوع الى تبازة . حقاً إنه لجنون يكاد يكون عقاباً ، ان يرجع امرؤ الى بيئة الشباب ، وان نحاول في سن الاربعين إحياء ما احببناه ونعمنا به في سن العشرين . لكنني نُبئت من قبل بهذا الجنون . ألم أكن قد رجعت مرة الى تبازة بعيد سنوات الحرب التي سجلت لي نهاية الشباب . كنت اتمنى — فيما اظن — ان اجد حرية لا استطيع نسيانها . حقاً لقد امضيت — منذ عشرين سنة — في هذا المكان اصبوحات بأكملها اتجول بين الخرائب ، وأستنشق رائحة الشيح ، وأتدفأ بالصخور ، أكتشف الصخور الصغيرة التي سرعان ما تسقط اوراقها والتي تبقى حتى الربيع . وعند الظهر فقط في الساعة التي تسكت فيها الصرارات ، مخدّرة ، أهرب أمام اشتعال النور الجشع الذي يبتلع كل شيء . وفي الليل انام احياناً شاخص العينين تحت سماء مجدولة بالنجوم . عشت اذاً ، وبعد هذا الزمن بخمس عشرة سنة ، وجدت مرة ثانية خرائبي ، على مقربة من اوائل الامواج ، وتبعت شوارع المدينة المنسية من خلال حقول مغطاة بأشجار مريرة ، وعلى التلال التي تسيطر على الخليج الصغير ، لا زلت الاطف الاعمدة القمحية اللون . اما الآن فقد احيطت هذه الخرائب بأسلاك شائكة لا نستطيع ان نخترقها الا على عتبات مصرّح باجتيازها . وان التجول ليلاً ممنوع بها لاسباب يبدو ان الاخلاق تدعو لها ، وبالنهار نلتقي هناك بحارس حازم . ولا شك ان المطر نزل على طول امتداد الخرائب بمحض المصادفة .

تائهاً امشي في البادية المبتلة الغارقة في وحدتها ، محاولاً ان اجد — على الاقل — هذه القوة المخلصة حتى الآن ، تعينني لتقبل ما هو موجود عندما اعترفت — مرة — انني لا استطيع تغييره . حقاً انني لا استطيع ان اعيد سير الزمن ، ولا ان اعيد للعالم الوجه الذي كنت قد احببته عليه ، والذي تلاشى ذات يوم منذ امد بعيد . في ٢ سبتمبر

هذه قطعة من روائع الاديب الجزائري الكبير « البير كامو » ضمّنها كتابه « الصيف » L'Été الذي أثار لدى صدوره في العام الفائت ضجة كبيرة في صحف فرنسا الادبية . وهذا الكتاب نفثات شاعرية استوحاها كامو من جمال الطبيعة الجزائرية الخلبية اثناء اقامته بالجزائر في العطلة الصيفية . وواضح ان كامو يبث هنا حبه للجزائر ونفوره من اوروبا ، فيرمز الى الاولى بالصيف والنور والى الثانية بالشتاء والليل . و« تبازة » مدينة أثرية قريبة من العاصمة الجزائرية .

سنة ١٩٣٩ ، لم اذهب على كل حال إلى اليونان كما هو مفروض علي وعوضت ذهابي الحرب فجاءت الينا ، ثم شملت اليونان نفسه. هذه المدة ، هذه السنوات التي حالت دون الخراب والاسلاك الشائكة ، وجدتها حقيقة في نفسي ، في في هذا اليوم ، امام الاضرحة المليئة بماء اسود ، وتحت الاثول الجافة

وبعد ذلك جاءت الاسلاك الشائكة ، اعني المظالم ، الحرب ، البوليس ، زمن الثورة . لقد كان من الواجب ان نسير بانسجام مع الليل : فان جمال النهار لم يعد سوى ذكرى؛ وفي تبازة هذه الموحلة ، قد ارتسمت الذكرى ، ويجدر بنا الكلام عن الجمال ، عن الاسراف ، او عن الشباب ! وفجأة تحت ضوء الحرائق كشف العالم عن تجاعيده وقروحه ، القديمة والجديدة . لقد شاخ مرة واحدة ، ونحن معه . هذا الدافع الذي جئت ابحث عنه هنا ، اعرف جيداً انه لا يرتفع الا بالذي لا يعرف انه سيندفع . لا حب بدون براءة . اين البراءة ؟ الدول تنهار؛ الاجناس والناس تتعاض من خناقها ، افواهنا ملطخة . بعد ان كنا برآء دون ان نعرف ، صرنا مذنبين دون ان نريد : الغموض يكبر مع علمنا ومن اجل هذا نشغل انفسنا بالاخلاق ، يا للسخرية !

انني مريض احلم بالفضيلة ! وفي وقت براءتي ، كنت اجهل ان للاخلاق كيانا وجوديا . اعرفها الآن ، ولم اكن قادراً على ان اعيش في سموها . وعلى الرأس الذي احببته بكل قواي ، بين الاعمدة المبتلة من المعبد المهدم ، يخيل الي انني امشي وراء احد اسمع اقدامه على البلاط والفسيفساء، ولكن لا ادركه ابداً . ورجعت الى باريز ، ومكثت فيها سنوات قبل ان ارجع الى بلادي .

لقد كان شيء ما ينقصني في هذه السنوات . عندما يبتسم لنا الحظ — مرة — فنحب بقوة ، تمر الحياة باحثة من جديد عن هذه الرغبة وعن هذا النور . إن التخلي عن الجمال وعن السعادة الحسية المرتبطة به ، ومهنة الشقاء العائقة ، تتطلب

البير كامو

عظمة تنقصني . لكن بعد كل شيء لا توجد حقيقة ترغم على الابتعاد . الجمال المنعزل ينتهي بالتكشير الوقح ، العدالة المنعزلة تنتهي بالظلم . الذي يريد ان يستعمل هذه عند إبعاد تلك لا يخدم احداً ، ولا نفسه ، وفي النهاية يخدم مرتين اللاعدالة . لقد جاء يوم من شدة تبلد حسه ، انعدم الشيء الذي يدهشني ، كل شيء معروف ، الحياة تمر لتعاد . هو زمن المنفى ، زمن الحياة الجافة ، زمن الارواح الميتة . لكي تبعث من جديد تلزم لك منحة سماوية او وطن او نسيان نفسك . كم من صباح عند منعطف طريق ، نزل ندى عذباً على القلب ثم تبخّر . لكن النضرة لم تزل حالّة وهي الوحيدة ، التي يطلبها القلب دائماً . يجب ان اذهب من جديد .

ومرة ثانية — سرت في مدينة الجزائر ، تحت نفس الوابل الذي يبدو لي انه لم ينته منذ إقلاعٍ ظننت أنه الأخير وسط هذا الحزن الشديد الذي يتنفس المطر والبحر ، ورغم هذه السماء من الضباب وهذه الظهور الهاربة تحت المطر الغزير ، وهذه المقاهي ذات الاضواء الكبريتية المشوهة للوجوه ، وتشبثت بالأمل . هل أنا لا أعرف ان امطار مدينة الجزائر التي تبدو أنها لا تنتهي ، تتوقف — مع ذلك — في لحظة ، كوديان بلادي التي تنتفخ في ساعتين ، فتتلف هكتارات من الأرض وفجأة تنضب ؟ وفي الواقع فلقد توقف المطر ذات مساء . فانتظرت ليلة أخرى ، وارتفع صباح سائل ، باهر ، على البحر . ومن السماء الوضاحة كالمقلة ، المغسولة والمعماد غسلها بالمياه ، المتناقصة بهذا الغسل المستمر إلى أدق وأوضع خيط ، نزل نور مهتزّ فأعطى كل منزل ، وكل شجرة ، صورة حساسة ، وجدة مبدعة . الأرض في صباح العالم ، كان من حقها ان تنبجس في ضوء مشابه . واخذت من جديد الطريق إلى تبازة .

لم يكن واحد من هذه التسعة والستين كيلو متراً بين مدينة الجزائر وتبازة خالياً من ذكريات وإحساسات ، الطفولة

العنيفة ، أحلام المراهقة في أزيز الأوتوبيس ، الأصباحات ، الفتيات النضرات ، الشواطىء ، العضلات ، الشابة التي هي دائمـــاً في أقصى جهدها ، ألم المساء الخفيف في قلب ابن ست عشرة سنة ، الرغبة في الحياة ، المجد ، ودائماً نفس المساء في امتداد السنين ، لا تنضب من قوة ولا من أنوار ، شرهة هي نفسها تلتهم واحدة إثر الاخرى عـــلى مر الشهور ، الضحايا المقدمة على شكل صليب فوق الشاطىء ، في الظهيرة الجنائزية. نفس البحر — دائماً — قريب من النعومة عنـد الصباح ، هو الذي وجدته في نهاية الأفق منذ أن فارقت الطريق الساحل وهضابه إلى الكروم ذات اللون النحاسي وانخفضت نحـــو الشاطىء . لكني لم أتوقف لأنظر اليها . انني ارغب في رؤية (شنُوَى) — مرة ثانية — هذا الجبل الجاثم بثقل ، القوي ، المقطوع في كتلة واحدة ، هذا الجبل الذي يحاذي خوَيلج تبازة غرباً ، قبل أن ينحدر هو نفسه إلى البحر . إننـا نلمحه من بعيد قبل ان نصله بكثير ، بخاراً أزرق وخفيفاً لا زال يمتزج بالسماء . لكنه يتكاثف شيئاً فشيئاً ، كلما اقتربنا منه ، إلى ان يأخذ لون المياه المحيطة به ، موجة ضخمة ساكنة جمدها بوحشية دافع عجيب فوق البحر الذي هدأ فجأة. لا أزال غير بعيد، قريباً من أبواب تبازة، وها هي كتلته العابسة سمراء وخضراء. ها هو الرب العجوز الأشهب الذي لا يزعزعه شيء ، ملجــأ ومرفأ لابنائه ، الذين أنا منهم .

أنظر اليه وانا أخترق الأسلاك الشائكة لأجد نفسي بين الانقاض . وتحت نور ديسمبر المختـــال ، كما يحصل مرة أو مرتين فقط في الحيوات التي — بعد هذا — تستطيع ان تحس نفسها طافحة ، لقد وجدت بالتدقيق الشيء الذي جئت لأبحث عنه ، والذي — رغم أنف الزمن والعالم — قد قـــدّم إليّ وحدي كحقيقة واقعية . في هذه الطبيعة القاحلة ، من الفوريم[1] (Forum) المنثور عليه الزيتون ، اكتشفت القرية في اتجـــاه منحدر . لقد انقطعت كل حركة : دخان خفيف متصاعد في الهواء الصافي . لقد صمت البحر وكأنه اختنق تحت المنضحة المتقطعة من نور متلألىء وبارد . ولم يأتنا من « شَلوَى » سوى صوت ديك بعيد راح يشهر وحـــده مجد النهار الواهي . ومن جهة الخرائب التي هي أبعد من ان نصلها امتداد البصر، لم نر سوى صخور مرتعشة ، وشيح واشجار وأعمدة في غلالة الهواء البلوري . يبدو لي ان الصباح أصابه وجوم ، والشمس توقفت لمدة غير محدودة . في هذه الانوار وفي هذا الهدوء ، سنوات من الغضب والليل ذابت بالتدريـــج ، وسمعت في نفسي ضجة كادت تنسى ، كأن قلبي الذي قـد توقف منذ أمد طويل ، رجع إلى خفقانه . والآن فأنا المنتبه من غفوتي عرفت الضجات غير المدركة التي احتواهـا السكون واحدة واحدة : كمنجة الطيور المستمرة ، تنهدات البحر الخفيفة القصيرة ، تحت اقدام الجلاميد ، اهتزاز الاشجار ، غنـــاء الأعمدة الأعمى ، ارتعاد الشيح ، الضباب المختفي . لقد سمعت هذا وأصغيت أيضاً الى الامواج السعيدة تصعد إليّ . واخيراً بَدَا لي أنني رجعت الى الشاطىء ، لمدة لحظة عـلى الأقل ، وهذه اللحظة العظيمة لا تنتهي أبداً . لكن بعد برهة ارتفعت الشمس درجة في السماء وضاحة . واختبر شحرور صوتـــه بإيجاز ، ومن كل مكان انفجرت الطيور بدورها تغني ببهجة ، تنافر باعث على السرور نشوة لا متناهية ،ورجع النهـار الى سيره فوجب عليه أن يأخذني حتى المساء .

وعند الظهيرة على المنحدرات نصف — الرملية والمغطاة بنبات عباد الشمس كالزبد الذي تركته أمواج أواخر الأيام الغضبى بعد انسحابها ، نظرت إلى البحر الذي ارتفع في بطء بحركة ضعيفة فأرويت عطشين لا نستطيع ان نتحايـل عليهما — دائماً — دون ان يجف الكائن الوجودي ، أريد أن أقول « حبّ وتعجّب » لانه يوجد سوء الحظ فقط إذا لم تحَب ويوجد الشقاء إذا لم تحِب . والآن فنحن نموت كلنا بهـــذا الشقاء . لأن الدم ، والأحقاد هي التي تهزل القلب نفسه ؛ كثرة المطالبة بالعدالة تتلف الحب الذي أعطاها — مع ذلك — الحياة . وفي الضجة التي نعيش ، الحب مستحيل والعدالة لا تكفي . ومن أجل هذا كرهت أوربا النهار ولم تعرف إلا شيئاً واحداً هو مقابلة الظلم بنفسه . لكن لمنـــع تصلب العدالة ، هذه الفاكهة البرتقالية الجميلة التي لا تحتوي الا على لب مر ويابس ، اكتشفت — مرة ثانية — في تبازة انه يجب ان نحتفظ في انفسنا بالنضارة ، بمنبع السرور . وأن نحب النهار الذي أفلت من الظلم ، وأن نعود إلى الصراع مع هذا الضياء المكتسب . لقد وجدت — مرة ثانية هنا الجمـــال

[1] مكان كان يجتمع فيه الجمهور اليوناني القديم لمناقشة مشاكله العامة .

القديم ، سماء شابة ، ووزنت حظي ففهمت اخيراً ان ذكرى السماء هذه لم تفارقني في أسود سنوات جنوننا . هي التي صرفتني اخيراً عن اليأس . لقد علمت دائماً ان خرائب تبازة كانت أشب من معالمنا وردومنا . العالم يبعث في كل يوم وسط ضياء دائم جديد .

يا للنور ... ! هو صوت كل الناس القائمين في المأساة القديمة امام حظوظهم . هذه الاستغاثة الاخيرة هي استغاثتنا . لقد عرفتها الآن . وسط الشتاء ، علمت اخيراً انه يوجد صيف لا يقهر في كياني .

لقد هجرت من جديد تبازة ، ورجعت إلى اوربا وكفاحها لكن ذكرى هذا اليوم بقيت تسندني وتعينني على ان أنقبل من نفس القلب ما يثقل وما يبعث على السرور . في هذه الساعة الصعبة التي نحن فيها ، ما هو الشيء الذي أستطيع ان ارغب فيه اذا لم يكن عدم رفض اي شيء وحذق الفتل من خيط ابيض وخيط اسود حبلاً واحداً مشدوداً الى حد القطع . ان في كل ما قلت وفي كل ما فعلت إلى الآن يبدو من الواضح ان اعترف بهاتين القوتين ، ولو كانتا متضادتين . لم استطع ان انكر النور الذي ولدت فيه وفي آن واحد لا استطيع ان ارفض عبوديتي لهذا الزمن . إن من السهل جداً ان نقابل ونوازن هنا بين اسم تبازة اللذيذ وبين اسماء اخرى اكثر وقعاً واكثر إيلاماً : يوجد لبشر اليوم طريق داخلي اعرفه جيداً لانني طفته في الاتجاهين فهو يبتديء من هضاب الروح وينتهي عند عواصم الجريمة . ومن غير شك فاننا نستطيع دائماً ان ننام ونستريح على الهضاب او نتاجر في الجريمة . لكن إذا تخلينا عن جزء من كياننا فاننا تخلينا عن الوجود كله ، اذاً يجب ان نتخلى عن الحياة وعن الحب بوجه آخر ، وبالنيابة توجد إذاً ارادة الحياة دون رفض اي شيء من الحياة التي هي الفضيلة المعتبرة عندي في هذا العالم . وأود لو جربتها من بعيد على الاقل . وإذا وجدت قلة من العصور طلبت كما طلب عصرنا أن نسوي بين الحسن والرديء فقد أحببت الا اتجنب شيئاً وان احافظ بالدقة على ذاكرتين . نعم ! يوجد الجمال ، وتوجد السخافات . وكيفما كانت صعوبات المشروع ، لا أريد ان اكون خائناً لا لهذا ولا لاولئك .

عنى ان هذا ايضاً يلتبس بالاخلاق ، ونحن نعيش لعنى يذهب الى أبعد من الاخلاق . إذا أردنا ان نسميه ، ما هذا السكون ! المخيم على هضبة « القديسة سالزا » ، شرق تبازة ، المساء حافل ، والواقع ان الوقت لا زال ضياء ولكن ، في الغور سكرة خفية تعلن آخر النهار . واستيقظ هواء خفيف كالليل وفجأة اخذ مبحر بلا امواج اتجاهاً وسال كنهر كبير مجدب من طرف الافق هذا الى طرفه الآخر . السماء تغور . هكذا ابتدأ الغموض ، الآهة الليل ، ما وراء اللذة . لكن كيف تترجم هذه : إن قطعة العملة التي التقطتها من هنا شكلاً ظاهراً ، وجه امرأة جميلاً يعيد على ما تعلمته في هذا اليوم ، ووجهاً متآكلاً تحسسته تحت اصابعي عند رجوعي . ماذا يستطيع ان يقول هذا الفم بلا شفاه ، غير أن صوتاً آخر غامضاً في نفسي يعلمني في كل يوم جهلي وسعادتي :

- « إن السر الذي أبحث عنه قد فر وسط وادي أشجار الزيتون ، تحت العشب والبنفسج البارد ، حول المنزل العجوز الذي يستنشق عبير فروع الكروم .

منذ أكثر من عشرين سنة ، جبت هذا الوادي ، وجبت ما يشابهه ، وسألت معازين بكماً ، ودققت على باب الخرائب المهجورة . وأحياناً ، عند طلوع النجم الاول في السماء الذي لا زال مضاء تحت رذاذ من النور ظننت أنني كنت قد عرفت في الحقيقة . وأظن أنني أعرف دائماً . لكن أحداً لا يريد هذا السر ، من غير شك لا أريده أنا نفسي ، ولا أقدر أن ابتعد عن أهلي . لقد عشت في أسرتي التي تظن أنها جالسة على عرش مدن غنية وبشعة ، مشادة بحجارة وضباب ، تتكلم ليلا نهاراً بصوت مرتفع ، كل شيء ينشئ امامها هي التي لا تنحني أمام أحد : هي صماء عن إدراك كل الاسرار . قوتها التي تحملني حيرت مضجعي وصراخها أتعبني لكن شقاءها شقائي ، فنحن من دم واحد . ضعيف أيضاً ، شريك في الذنب ، محدث الضجة . ألم أصح بهذا بين الصخور ؟ ولو حاولت أيضاً بكل قواي أن أنسى ، فأمشي في مدننا مدن الحديد والنار ، وأضحك بشجاعة لليل ، وأنادي الزوابع ، وأكون مخلصاً . نعم ؟ لقد نسيت : انني نشيط وأصم من الآن فصاعداً . لكن لعله سيأتي يوم ، عندما نصير مستعدين للموت ضني وجهلاً ، هل لي ان اتخلى عن قبورنا المشئومة ، لكي أذهب واستلقي في الوادي ، تحت نفس النور واتعلم مرة أخيرة ماذا يجب أن أعرف » .

القاهرة — ترجمة : عثمان سعدي